

المحاضرة الثانية/ إشكالية التعاون الدولي: تشخيص المفهوم وتحليل الظاهرة

أولاً/ تشخيص مفهوم التعاون الدولي

1- مفهوم التعاون

أ- لغة/ التعاون لغة يعني العون والمساعدة، نقول ساعد فلان فلانا وطلب منه العون، فالتعاون هو التضامن، ومساعدة الناس بعضهم بعضاً في السراء والضراء، فهو المؤازرة وتقديم المساعدة لكل من إليها، وقد أمر الله تعالى عباده بالتعاون شريطة أن يكون على البر والتقوى، ونهاهم أن يكون تعاونهم على الإثم والعدوان، فقال في محكم كتابه: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ" سورة المائدة (الآية 2).

ب- إيتيمولوجيا/ الجذر الإيتيمولوجي للكلمة (cooperation) يأتي من أصل لاتيني (operari) (co) ف: (co) تعني "مع" أو بالاشتراك، و (operari) هي "فعل" أو "عمل" واستخدمت في اللاتينية الكلاسيكية لتعني العمل معاً وعموماً يدل الأصل الإيتيمولوجي للكلمة (co-operation) على مضمون مركزي وهو (العمل معاً).

ج- اصطلاحاً/ مشاركة العمل بين طرفين من أشخاص أو مؤسسات أو بلدان بهدف إنجاز هدف ما، وتتعدد تعريفات التعاون بناءً على طرفيه، فعلى الصعيد الفردي هو عبارة عن توزيع الجهد على جميع أفراد المجموعة، وتقسيم العمل فيما بينهم ليشكل كل فرد منهم جزءاً هاماً وفاعلاً من المشروع. أما على صعيد المؤسسات والمنظمات فهو اشتراك في التوجهات والاهتمامات، يقوم على أساس استغلال الموارد المشتركة للعمل بغية تحقيق هدف موحد أو تنمية للمجتمع والمحيط، كما أنه يفضي في نهاية الأمر إلى تبادل المنفعة عوضاً عن التنافس وتفاعلاً بين كافة الأطراف. وقد فسر علم الاجتماع التعاون بأنه الآلية التي تقوم على عمل مجموعة من الأفراد معاً، بدافع الحصول على المنفعة المشتركة بينهما، وقد يكون التعاون بين الأصناف نفسها أو بين أصناف مختلفة، مثل: تعاون النحلة مع الزهرة لصنع العسل والقيام على تخصيب زهرات أخرى، فالتعاون عكس التنافس الذي يكون الدافع فيه هو تحقيق المنفعة الشخصية. ويكون التعاون في علم النفس عبارة عن علاقة شخصية بين طرفين يظهر بينهما التعاون والحساسية لاحتياجات الآخرين، فالتعاون هنا هو عمل أو عملية بين شخصين أو أكثر يعملون معاً من أجل الحصول على النتيجة المرجوة من الجميع.

2- إشكالية ضبط مفهوم التعاون الدولي

يعتبر التعاون بين الدول أكثر انتشاراً من الحروب واقعياً، إلا أن الأدبيات المقدمة حول التعاون أقل من تلك التي كتبت حول الحرب، وقد تسعف العودة إلى بدايات نشوء حقل العلاقات الدولية في إضاءة جانب من هذه المفارقة، فالحقل نشأ أساساً للبحث في اندلاع الحروب، سواء المثاليين الذين أرادوا القضاء عليها كونها ليست حتمية طبيعية، أو الواقعيين الذين أرادوا فهم أسبابها بهدف التعامل معها كحتمية بنيوية، وهذا ما عبرت عنه مقولة والتز الشهيرة: "الحرب تقع لأنه لا يوجد ما يمنعها". وفي هذا الصدد يشير "وليام زرتمان" و"ساديا توفال" إلى أن الصراع بين الدول غالباً ما اعتبر طبيعياً وقابلاً للتفسير عكس التعاون الذي كثيراً ما اعتبر معقداً وإشكالياً، وحتى اهتمام الليبراليين بالتعاون كثيراً ما ارتبط بهاجس الحرب بدايةً بفكرة "السلام الدائم" "لإمانويل كانط" وصولاً إلى كتاب الوظيفة "ديفيد ميتزاني" الذي حمل عنوان "نظام فعال من أجل السلام".

وعموماً التعاون الدولي مصطلح يطلق على الجهود المبذولة بين دول من أجل تحقيق مصلحة الدول المتعانة، لتحقيق الأمن والسلم الدوليين، ومواجهة التحديات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية وغيرها، فهو يعني تحركاً جماعياً للأطراف الدولية المعنية به، فالتعاون كما هو معروف ليس سوى الجانب العكسي والايجابي للصراع. وبالتالي فاستخدام مصطلح "التعاون" يسلط الضوء بالفعل على أن (الجميع يتعاون!)، هذا الشعور الجماعي يفترض ضمناً وجود

استعداد وإرادة ورغبة وقدرة من الفاعلين بشكل جدي ومنسجم يسهل التدخل في الحياة الاقتصادية للدول المرتبطة بهذا التعاون.

لكن الطريقة الشائعة لرؤية التعاون بالإجماع كحل للمشاكل الاجتماعية تميل إلى تغطية آليات الهيمنة والصراع على السلطة باعتبارها تعمل من خلال العلاقات التعاونية، وهذا هو السبب الرئيسي لدراسة الديناميكيات السياسية للتعاون التنموي، فما يسمى عند السياسيين "التعاون" في الواقع وفي أحيانا كثيرة ليس سوى تعبير ملطف عن الوضع الجديد، أو الاشكال الجديدة من الصراع على السلطة، أو هيمنة الدول الغنية والأقوى على الدول الفقيرة والأضعف، وهكذا فدراسة التعاون الاقتصادي، أصبحت في حد ذاتها دراسة للقوة الاقتصادية الدولية.

على المستوى العام يمكن تعريف مصطلح التعاون بأنه أي "عمل مشترك لتحقيق غاية واحدة". وكما هو مستخدم في الخطاب الشعبي، فإن التعاون عادة ما يكون عكس المنافسة، وهو ما يعني أفعال "السعي للحصول على ما يسعى شخص آخر إلى الحصول عليه في الوقت نفسه".

ومع ذلك فإن التعاون والمنافسة ليسا متضادين، كما يستخدم بشكل فضفاض في الخطاب الشعبي. - في الواقع، الفرق بين المنافسة والتنافس ينبع من حقيقة أن المنافسة تنطوي على مستوى معين من التعاون، من أجل الحفاظ على "قواعد اللعبة". علاوة على ذلك في الواقع الاجتماعي، تبدو مهمة تعريف التعاون أكثر صعوبة، خاصة في حالة التعاون الإنمائي، الذي لا يكون دوليا فحسب، بل عادة ما يكون مشتركا بين الثقافات أيضا. فعندما يُنظر إليه على أنه نمط من السلوك، فإن ما يعتبر تعاونيا في ثقافة ما، قد يكون تنافسيا في ثقافة أخرى، نظرا لأن أهداف العمل الاجتماعي ذاتها تتحدد ثقافيا.

1- في التعاون، هناك هدف مشترك، يتجه نحوه التفاعل، ويتقاسمه الفاعلون.

2- في المنافسة، لم يعد الهدف المشترك مشتركا

3- في المساعدة، قد تكون هناك أهداف مشتركة، ولكن عملية تقديم المساعدة موجهة نحو مساعدة الطرف الآخر على تحقيق أهدافه الخاصة.

4- في التنافس، الهدف هو إعاقة الآخر عن تحقيق أهدافه الخاصة.

وفي الأساس يهنا هنا النقطتان الأولى والثانية (التعاون والمساعدة)، ولتوضيح الفرق بينهما نجد اختلافين: الأول ذو طبيعة تحليلية/ فالمساعدة، لا تعني ضمنا أن تكون الأهداف مشتركة، بل يكفي أن تكون أهداف المتلقي مقبولة من قبل المانح.

الثاني فهو أكثر تجريبي/ في التعاون لا يتم تقاسم الأهداف فحسب، بل أيضا بعض الموارد بين المشاركين. وعموما لكي يتسنى تسمية فعل "العمل معا" بالتعاون (وبأنه مختلف عن العمل القسري)، يجب أن يكون المشاركون في وضع يسمح لهم بالامتناع عنه، أي يجب أن يكونوا مستقلين فيما يتعلق بالأهداف المحددة والموارد المطالب بها. وبالتالي فالتعاون هو أي شكل من أشكال التفاعل الاجتماعي بين الجهات الفاعلة التي تسمح لهم بتحقيق أهداف مشتركة طوعية من خلال تقاسم موارد معينة معا. ولكن إذا أخذنا في الاعتبار أن التعاون مفهوم إيجابي، فلا ينبغي النظر إلى التعاون باعتباره علاقة متناغمة لا توجد فيها صراعات، فعلى العكس من ذلك، قد ينطوي التعاون على صراعات خفية على السلطة بين الشركاء، وقد يكون أيضا شكلا من أشكال هيمنة شريك على الآخر، وهذا يرتبط بالسياق الاجتماعي للتعاون، وبالتالي بأفكارنا حول الأنظمة الاجتماعية باعتبارها سياقات للتعاون والصراع.

إذن ما الذي يميز التعاون الدولي؟ وفقا لمجمل التعاريف، يشير التعاون الدولي إلى جميع "التعهدات" التي تسمح للجهات الفاعلة الدولية بتحقيق أهداف محددة بشكل مشترك من خلال تقاسم موارد معينة معا. وهنا نجد أنفسنا نتكلم في

مستوى أقل من التكامل، ولكن أكثر من مجرد جهود مشتركة متفرقة، فالتعاون الدولي يشير إلى علاقات راسخة بين الجهات الفاعلة ذات السيادة المستعدة لتقاسم بعض القيم معا، على الرغم من أن التعاون، بخلاف التجارة، لا يفترض تبادلا تجاريا من أي نوع (مثال التعاون الثقافي أو العلمي). وبالتالي إذا كان التعاون الدولي يختلف بشكل أساسي بطبيعة سياقه، فهو يعتمد في المقام الأول على أفكارنا حول النظام الدولي باعتباره متميزا عن الأنظمة الاجتماعية الأخرى.

فالتعاون الدولي كأسلوب جديد للعلاقات الدولية بالمعنى الحديث للكلمة، لم يتم تنفيذه إلا بعد الحرب العالمية الثانية ولكنه، أصبح نمطا مؤسسيا للعلاقات الدولية في فترة وجيزة، حيث تتخبط كل الدول تقريبا اليوم في التعاون بطريقة أو بأخرى وبالتالي فالبحث في التعاون الدولي يمثل مهمة صعبة لدراسة العلاقات الدولية حيث تمت دراسة مشكلات التعاون أولا وقبل كل شيء كمسألة من دراسات التنمية، ومع ذلك فإن إشكالية التنمية لا يمكنها وحدها أن تفسر ديناميكيات التعاون الدولي الإنمائي، ومهما كانت أشكال التنمية الداخلية في "الدولة النامية"، فلا يمكن أن ينشأ أي تعاون دون رغبة الشركاء في التعاون وليس من المستغرب إذن أن يكون التعاون الدولي محملا حتما بالجوانب السياسية والأخلاقية، وفي نظام دولي يتسم بفجوات متزايدة الاتساع بين مستويات الرفاهة الوطنية، فإن أي رؤية متماسكة للتغيير العالمي السلمي لا يمكن أن تتجاهل إشكالية التعاون بين الدول الغنية والفقيرة، وبالتفكير في نظرية العلاقات الدولية فإن دراسة هذه الإشكالية قد تساهم في تطوير فهمنا النظري لظروف التعاون والصراع بين الأمم.

ومع ذلك، فإن مفهوم التعاون الدولي في حد ذاته ينطوي على إشكالية إلى حد ما متعلقة بغموضه حيث يتم الاستشهاد به على نطاق واسع في المفردات العالمية، وغالبا ما يستخدم -حتى في المؤلفات العلمية- دون أي دقة على الإطلاق (الفرق بين التعاون والمنافسة). كما تبرز كذلك عند دراسة التعاون الدولي بعض الاشكالات المهمة كما يلي:

المشكلة الأولى ذات طبيعة نظرية: كيف يمكننا تفسير ديناميكيات التعاون الدولي؟ أو ما هي المعايير السياسية التي يجب استيفاؤها حتى ينشأ التعاون بين الجهات الفاعلة الدولية؟ وما هي الظروف الهيكلية التي من المرجح أن تؤدي إلى جهود تعاونية في النظام الدولي؟ على الأقل في العلوم الاجتماعية، يرتبط اختيار استراتيجيات التفسير المناسبة، أولاً، بالسؤال حول العوامل الداخلية مقابل العوامل الخارجية للعملية التي يتعين شرحها: هل ينبغي لنا أن نركز على الجهات الفاعلة، أم على البيئة الهيكلية للتعاون الدولي؟ وما هي الجهات الفاعلة ذات الصلة - أو السياق الاجتماعي- للتعاون؟

السؤال الثاني يتعلق بمستوى التحليل ذي الصلة: هل ينبغي أن نؤكد على مستوى المجتمعات المعنية، أم بين الدول (المستوى "الدولي")؟

إن الميزة الملاحظة عند تفحص أدبيات العلاقات الدولية حول "التعاون الدولي" هو قبولها بتعريف مشترك للظاهرة حيث اعتمد كثير من الباحثين التعريف الذي قدمه "روبرت كوهين" مع وجود بعض الاختلافات بينهم إلا أنها تدور حول ما الذي يشكل التعاون؟ بل تدور حول ما لذي يسببه؟ ويذهب كيوهان إلى أن: "التعاون يحدث عندما تكيف الفواعل سلوكها على حسب التفضيلات الحالية أو المتوقعة من الآخرين، عبر عملية من تنسيق السياسات". وفي سياق تعليقها على تعريف "كيوهين" لخصت "هيلن ميلنر" مجموعة من النقاط وهي:

- يفترض التعاون أن سلوك كل فاعل يتجه نحو تحقيق هدف ما، كما يفترض أن الفواعل تتبنى سلوكا عقلانيا يتعلق بحساب توافق التكلفة مع طبيعة الهدف المنشود.

- يفترض أن يحقق التعاون عوائد ومكاسب متبادلة لكل الاطراف المشاركة.

- تتطلب عملية التعاون أن يكيف كل طرف سياساته توقعاً للمكافئة، لذا فإن التعاون يفرض تكلفة كل الاطراف.

وفي بعض الاحيان يستخدم التعاون مصطلح "التعاون" للإشارة إلى وجود نمط من التفاعلات وذلك وفقا لزوجين من المعاني:

المعنى الاول: إن حل بعض القضايا يمكن أن يكون بين دول متصارعة ومتعادية فالخصوم وحتى الاعداء يتعاونون في مناسبات عديدة بهدف حل قضايا معينة، لذلك فالتعاريف التي تنتظر للتعاون كنقيض للنزاع لا تقدم الكثير في فهم الظاهرة فعادة يكون التعاون في الحالات التي تحتوي على خليط من المصالح المتضاربة والمصالح المشتركة.

المعنى الثاني: يعني التعاون أيضا رغبة الاطراف في الحفاظ وتعزيز تلك التفاعلات، مما يولد تعاطفا وشعورا متبادلا مفاده أن رفاه كل طرف يعتمد على رفاه الاطراف الاخرى، مع أن هذا لا يحول دون وجود نزاع أحيانا أو التنافس أحيانا أخرى. وعموما وبما أنه يجب الانتباه للظاهرة التي نريد مطابقتها والدلالة عليها، وإلى سياق تشكلها التاريخي، والتفطن إلى تكوينها وممارستها من منطلق تاريخي وتحليلي، باعتبارها عملية يمكن فهمها في حقل دلالي وسياسي أوسع، لذلك سنكتفي بتحديد خصائصه الأساسية بهدف تمييزه عن أشكال التفاعل الدولي الأخرى وعليه فالتعاون وفق هذا المعطى ليس نمطا سوسيولوجيا ولا نمطا تاريخيا ولا نمطا سياسيا فحسب بل وصف لنمط من السلوك أو تفاعل يتحدد بوجود مجموعة العناصر التالية: فعل جماعي: وجود طرفين أو أكثر.

التبادلية: علاقة التفاعل القائمة على التشارك والعمل معا.

موضوع وهدف التبادل: العمل معا بهدف تحقيق قيمة إيجابية (مادية أو معيارية) لكل الاطراف.